الفصل الثامن

المحاولة العربية

فى هذه الحياة المنتشرة والتدخل الأجنبى المتغلغل فى البلاد ، والاستئثار بالسلطان من قبل غير أهله ، كانت تظهر فى الفينة بعد الفينة حركات عربية تحاول إرجاع الحالة السابقة ولكن ذلك لم يجد نفعاً . فقد كان فى شمال العراق فى القرن الرابع الهجرى والقرن العاشر الميلادى حكومة للحمدانيين فى الموصل وفى حلب ، وكان بلاط سيف الدولة يومئذ مجمع العلماء ومجلس الأدباء والشعراء لا يماثله فى ازدهار العلم إلا بلاط الرشيد أيام ازدهار ملكه . غير أن الظروف لم تسمح لهذا الأمير العربى أن يمد سلطانه ويقضى على هذا التغلغل الأجنبى الذى بعثته حركات الموالى . فقد كان يحمى ثغوره من هجمات الروم وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا ، وطالما أوقع بهم وفرق صفوفهم وقد خلده المتنبى بقصائد لا تزال اللآلىء فى عقد الأدب العربى .

كان المتنبى يحرض القوم ويستحث أمثال هذا الأمير على إعادة المجد العربى فهو يرى أن أقاليم الخلافة قد مزقت أوصالها تلك المؤامرات وانفصل بعضها عن بعض وتولى أمورها ملوك تنزل بهم صفاتهم عن مصاف الملوك .

وإنما الناس بالملوك وما ... تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعبد كأنها غنم

وفى الفرات الأوسط من سهول الراقدين قامت دولة المزيديين ،

وكادت تستولى على جميع العراق ، اتخذت مدينة الحلة عاصمة لها وتقلب رئيس الأسرة ملك العرب ، ولو قدر النجاح لهذه الحركة لكان للتاريخ العربى صفحة أخرى غير هذه الصفحة وقد خلد الحريرى فى المقامة التاسعة والثلاثين اسم الأمير سيف الدولة دبيس بن يزيد الأسدى بمدح يدل على شعور الناس بالتحول ومال حكم الغرباء .

استولت هذه الأسرة على واسط وعلى البصرة وامتد حكمها زمنا قصيراً ، ولكن لم تستطع تثبيت قدمها فى أرجاء المملكة .

لقد أدرك العرب أن سر انهيار سلطانهم لم يكن فى الناحية السياسية فحسب . فأخذوا يتجهون إلى نواحى أخرى : إلى بعث جديد يعيد التراث القديم الصافى من شوائب البدع التى أدخلها المندسون فى صفوف الإسلام ورءوا فى الرجوع إلى ذلك الصفاء ابتداء عهد جديد يعيد إلى الأمة أمجادها الأولى التى بعثتها بطاح مكة والمدينة وفى الرجوع إلى تلك العقيدة الصافية إعادة قوة الأمة وسلطانها الزمنى الذى فقدته فانهارت بغداد وتبعها العالم العربى ، وكان طليعة هؤلاء المفكرين فقيه عربى نابغة هو ابن تيمية .

ابن تيمية وتلامذته

نجح خصوم الإسلام والعرب بما أودعوه هذه العقيدة من شوائب البدع والضلالة واستطاع أتباع مزدك والسبأية اليهودية ومن على شاكلتهم من أرباب العقائد الذين دخلوا فى الإسلام للكيد به أن يبثوا عقائدهم ، ويدسوا ما يريدون ، وقد ذكرنا آنفا أنهم اتخذوا السياسيين والشعراء والأدباء والعلماء ممن يدين بتلك العقائد والذين انتحلوا الإسلام لا للإسلام وإنما لهدمه وسائل لتنفيذ مقاصدهم ، وكان أشد هؤلاء كيداً فرق الباطنية وأتباع قرمط وغيرهم من الفرق المتقاربة مع مبادئهم والتى كانت امتداداً

لحركة أبي مسلم الخراساني والسبأية اليهودية . وظلت معاول هؤلاء الهدامين تعمل حتى انهار هذا الصرح الممرد العظيم ووهنت تلك القوة التي كانت تمد شباب العالم بالمرة والشدة ، وتبعث فيه العدل والاخاء والمساواة ، فسهل على التاتار أن ينحدروا انحدار السيل لا يبقون ولا يذرون ، حتى بلغوا بغداد عاصمة الخلافة وموطن الثقافة والسلطان ، فأتوا عليها وأزالوا حضارتها من الوجود ومزقوا وهدموا وأحرقوا ومثلوا وقد نجا من هذه الكارثة من فر بدينه وبدنه وذل من بقي قتلا وأسرا .

كان أثر الذين حاربوا عقيدة الإسلام بالغا أشده حتى صارت بدعهم مألوفة تمارس وتدرس بل صارت أصولا تتفرع منها فروع وافتن هؤلاء الهدامون في بث عقائدهم وتسهيلها على الناس وموافقتها لرغبة كل سامع لها فاستطاعوا أن يجلبوا العامة إليها فكثر بذلك أتباعهم وازداد خطرهم وجعلوا يوجهون الناس للشر ويؤهلونهم للفوضى ومحاربة السلطان .

ويل أمة تفسد أصولها بالبدع الأجنبية عنها ، إنها تمسخ مسخا دون أن تشعر بالمسخ ، وتهون دون أن تحس بالهوان حتى يقيض الله لها من ينفخ الصور في أذنها فيبعثها بعثا جديدا .

وهكذا فقد قيض الله لهذه الأمة عقلا واضح العقيدة قوى الحجة نافذ الرأي في الفقيه الأديب العربي تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله ابن محمد ابن تيمية الحراني العربي .

ولد هذا المصلح في يوم الإثنين في العاشر من ربيع الأول عام ٦٦١ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني عام ١٢٦٣ في أول النصف الثاني من القرن الثالث عشر .

فر أبوه به وبأسرته من حران إلى دمشق خوفا من بربرية التاتار فعكف وهو غلام صغير على دراسة الفقه فحضر على أبيه كما حضر على

كثير من العلماء وأتم دراسته وهو فى سن العشرين واقتعد مكان أبيه بعد وفاته وشرع يفسر للناس القرآن يوم الجمعة من كل أسبوع .

وحج إلى مكة عام ١٢٩٢ وجاء إلى القاهرة عام ١٢٩٩ ثم أخذ يتردد عليها فى الفينة بعد الفينة على حسب ما تقتضيه ظروفه التى تحيط به .

كان ابن تيمية صافى العقيدة واضح الرأى وضوح الصحراء العربية لا تجد فيها دغلا ولا شجراً متأشباً . وكان يصحب هذا الصفاء منطق مستقيم وفلسفة متوشجة بعلل الحوادث وأسبابها أخذها عن فلسفة اليونان والعرب ومزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامى وزاد على ذلك ما تفرد به فى دراسة القرآن والحديث .

كان يضمر ابن تيمية شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهوان ، وعز عليه أن يرى عقيدة التوحيد تتأرجح بين الشك والوهم بما أصابها وانحدر إليها من مبادىء الباطنية وأفعال القرامطة وآراء مزدك ومانى وابن سبأ ومن لف لفهم من الناقمين على الإيمان .

فإن الإشراق الإلهى الذى كان ركناً ركيناً فى مبادىء الباطنية والذى فيه تشرق المعرفة على الأئمة فتسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، كان سبباً لتأويل الشريعة حسب أهواء هذه الفرقة ووفق ميولها ، وإن تأليه البشر الذى ابتدعته السبأية وثبتته الباطنية قد بعث فرقة الاتحادية بأوسع معانيها فى الوجود ، وحسبنا أن نذكر بعضاً مما فصله ابن تيمية فى رسالته : « الرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم » .

قال ابن تيمية إن ما تضمنه هذا الكتاب وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطناً وظاهراً وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد وهم يسمون أنفسهم المحققين ، وهؤلاء نوعان : نوع يقول بذلك مطلقاً كما هو صاحب الفصوص ابن عربى وأمثاله مثل ابن سبعين وابن الفارض والقونوى والششترى والتلمسانى

وأمثالهم ممن يقول إن الوجود واحد ، ويقولون إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر . بل يقولون : الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق ويقولون إن وجود الأصنام هو وجود الله ، وإن عباد الأصنام ماعبدوا شيئاً إلا الله ، ويقولون إن الخالق يوصف بجميع ما يوصف ؛ المخلوق من صفات النقص والذم .

ويقولون إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله ، وإن موسى أنكر على هرون لكون هرون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى بزعمهم كان من العارفين الذين يرون الحق فى كل شىء ، بل يرونه عين كل شىء ، وإن فرعون كان صادقاً فى قوله : « أنا ربكم الأعلى » بل هو عين الحق ، ونحو ذلك مما يقوله صاحب الفصوص . ويقول أعظم محققيهم : إن القرآن كله شرك لأنه فرق بين الرب والعبد وليس التوحيد إلا فى كلامنا — فقيل له فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالا والأم حراماً ؟ فقال الكل عندنا واحد ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم .

ويستمر بن تيمية فى رده ويقول : « إن التلمسانى كان من أعظمهم كفراً وفسقاً وكان من أعرفهم لهذا المذهب وأخبرهم بحقيقته فأخرجه ذلك إلى الفعل » .

ويقول إنه كان يستحل المحرمات ويصنف للنصيرية كتباً على مذهبهم يقرهم فيها على عقيدته الشركية ، ويقول إن ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء وكان له من الكفر والسحر الذى يسمى السيمياء والموافقة للمسيحية والقرامطة والرافضة ما يناسب أصوله .

وهو يشبههم بالجهمية ، ويقول إن هؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون إن الله بذاته حال فى كل مكان ، ولكن أهل وحدة الوجود حققوا هذا المذهب أعظم من تحقيق غيرهم من الجهمية .

وأما النوع الثانى فهو قول من يقول بالحلول والاتحاد فى معين كالحاكمية الذين يقولون بذلك فى الحاكم ، والحلاجية الذين يقولون بذلك فى الحلاج ، واليونسية الذين يقولون بذلك فى يونس ، وأمثال هؤلاء من يقول بألوهية البشر وبالحلول والاتحاد فيه ، ولا نجعل ذلك مطلقاً فى كل شىء ومن هؤلاء من يقول بذلك فى النسوان والمردان أو بعض الملوك وغيرهم ، انتهى ما أخذناه من كلام ابن تيمية .

ويكفى للمرء أن ينظر نظرة عابرة إلى هذه الأمثلة ثم يرجع إلى ما أثبتناه فى فصولنا السابقة ليرى كيف انحدرت هذه المبادىء فى أصلاب الزمن تنتقل فى الأشخاص والنحل وتتطور حتى لبست ثوبها الأخير المهلهل الذى تهلهلت به أخلاق الأمة وتقاليدها فأخذت تسبح فى هذا الفساد المزدكى المتحلل من كل قيد والذى تستر بستار الدين ومعرفة الكشف عن الحقيقة فضل به الجهال الذين يحسنون الظن بأقوال أولئك فتاهوا وطفقوا يعشون فى بهماء من الضلال والغى يرتعون بما تشتهيه لذاتهم وغرائزهم ثم ينسبون ذلك كله إلى وحدة الوجود .

ونشأ عن هذا النوع من التأليه تقديس البشر والأحجار ونصب الأصنام وعبادة النقوش فقد نقشت على الصخور آثار قدم زعم ناقشوها أنها قدم النبى (ص) ونقشت كف زعم الدجالون أنها كف الرسول (ص) وأخذوا يطوفون بها على البيوت يخدعون العامة ويأخذون منهم الأموال ويدعون أن من نذر لها أو تبرك بها شفى وطفق من على شاكلة هؤلاء يبنون المشاهد والمساجد على قبر من القبور يزعم أحدهم أنه رأى فى المنام أن هذا المكان مرقد لولى أو لرجل صالح وأنه شم عبيراً منتشراً من هذا المكان وأن هذه الرائحة ما هى إلا دلالة على صلاح صاحب هذا المكان وولايته ، ثم يشرعون يدعون الناس للتبرك به والتوسل إليه ، وليس من شك فى أن هذه الوثنية يقصد بها صرف الناس عن التوحيد وعن

حج بيت الله اكتفاء بمثل هذه الزيارات ، ولقد مر بنا كيف خطف القرامطة الحجر الأسود من مكة ووضعوه عندهم ليضعضعوا عقيدة الناس فى أول بيت وضع لهم .

لقد اطمأن كثير إلى هذه المبادىء وصارت أصولا فى عقائدهم يدافعون عنها ويحاربون من أجلها حتى لقد ساعد النصيرية التاتار على اغتيال الإسلام ، هال ابن تيمية فساد مجتمعه بهذه المبادىء الهدامة فنزل يدفع عن عقيدة التوحيد بقلمه وفمه وسيفه وطفق . يحرر الرسائل فى الرد على هؤلاء المبتدعة ويعظ الناس ويحرض السلطان على مقاتلة النصيرية مع التاتار فنجح وكسر النصيرية شر كسرة وكم مرة نزل ابن تيمية يحمل فأسه يحطم الأصنام كما حطم ابن الوليد اللات والعزى . وكان عبدة الأصنام يفرون منه إشفاقاً عليه وخوفاً أن يناله عقابها ، وكان يبتسم ضاحكا منهم ويعجب لأمر هذه الأمة التى رفع التوحيد مكانتها إلى السماء كيف انحدرت بالشرك تتمرغ على أقدام الأحجار تستنزل النصر من القبور بدل أن تطلبه من خالق الخلائق ، أراد ابن تيمية أن يهذب النفوس ويبعث فيها العزة والقوة ويربطها بالسماء فكتب لهم رسالته فى الرد على الاتحادية يدلل رده بالمعقول والمنقول ، ويكفى أن ننقل إليك ماجاء فى أدلته المنقولة فإن العقل مع ابن تيمية والذوق . إذ لا يعقل أن يحول فى الذهن اتحاد خالق بمخلوق فان تجرى عليه نواقص الحياة وزياداتها جميعها قال ابن تيمية مقتبساً من القرآن : لاريب فى أن الله رب العالمين ، رب السموات والأرضين ومابينهما ورب العرش العظيم رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ، ربكم ورب آبائكم الأولين ، رب الناس ملك الناس إله الناس . وهو خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

فهذه المعانى وما أشبهها من معانى ربوبيته وملكه وخلقه ورزقه وهدايته ، ونصره وإحسانه ، وبره وتدبيره ، وصنعه ، ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه سميع بصير ، لا يشغله سمع عن سمع ، لا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، يبصر دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . فهذا كله حق ، وهو لمحض توحيد الربوبية ، وهو مع هذا قد أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين .

ومن هنا نرى ابن تيمية يؤكد على عقيدة التوحيد وينزه الإله عما يريده به الضالون من البشر . لأن الإله يجب أن يكون منزهاً عن هذه النواقص التى تحيط بالإنسان ، وأن الإنسان لا يمكن أن يقيس الإله بمقاييسه الصغيرة الضيقة . وكتب رسالة فى زيارة القبور والاستنجاد بالموتى ، واعتمد فى أدلته على ما جاء من الآيات فى القرآن الكريم وما جاء فى أحاديث النبوة ، قال تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، إلا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون » .

وقال تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » وقال « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين » وقال « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » .

« أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا » .

وقال تعالى : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

وقال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

وقال : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونو ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد أنتم مسلمون » .

وقال تعالى : « فلا تخشو الناس واخشونى » .

وقال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى » .

وجاء فى الحديث ، أن الصحابة كانوا فى سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اربعوا على على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً بل تدعون سميعاً قريباً أقرب إليكم أو إلى أحدكم من عنق راحلته » .

لقد جاء الإسلام قوياً شديداً يملأ القلوب نوراً ويحرر النفوس من الذلة فحطم الأصنام وبعث فى الناس العزة والكرامة وساواهم وجعلهم أخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض إلى عزة السماء لكيلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبداً من عباد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده أيضاً . وفى هذه الرابطة المقدسة تعتز النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجلوة ، وفى ظلال الحرية المجلوة يبدع الإنسان فى عمله ويثق بنفسه ، وليس أحلى من الثقة بالنفس إذا كانت معتزة بعقيدة سامية . وهذه هى المثل العليا الأمم فى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، وإذا كان الفرد عزيزاً عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع وإذا كان المجتمع عزيزاً عزت الدولة ، وصارت مرهوبة الجانب وهذا ما كان يريده ابن تيمية لأمته فى ذلك

الزمن الذى ذلت به النفوس فأصبحت هذه الأمة نهباً مقسما يقتسمها الطامعون بعد أن كانت عزيزة الجانب .

إن النفوس الضعيفة تتعلق بخيوط العنكبوت وتتشبث بأضعف الوسائل وتتمسك بالأوهام ، فأراد ابن تيمية أن يرتفع بها من ساحة الأوهام إلى الحقائق ويبدد سحباً مظلمة غشيت عيونهم فذكرهم بعقيدتهم الغراء ، عقيدة التوحيد ، وجاءهم بآيات واضحات تحدد مكانة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان وبالنسبة لخالقه .

إن التوحيد ميزة الأمم الراشدة العاقلة التى يصل بها منطقها إلى وجود قوة خارقة فوق الطبيعة وفوق الممكنات ، وفوق مقاييس البشر ، هذه القوة هى رب واحد قديم غنى عما سواه ، لا شريك له فى الوجود ، وأن العباد مهما سمت منزلتهم لن يصلو إلى منزلة الربوبية ؛ ولن تصح عبادتهم والتوسل إليهم ، إنهم عباد الله لا يضرون ولا ينفعون ، وإن الإنسان لن يسمو إلى منزلة ربه .

قال تعالى : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله » . فالقوة فى كشف الضر وارادة الخير لن تكون لبشر ، وإنما تكون لله وحده ، ومن يلجأ إلى بشر فى رأى ابن تيمية فقد أشرك ، ومن أشرك فقد ضل ، ومن ضل فقد ذل ، ومن يذل يسهل الهوان عليه ، وهكذا أصاب الأمة الإسلامية ذلك الضعف حين ألهت الضعفاء واستكانت إلى الأصنام .

وناقش ابن تيمية أهل الفرق فى ذات الله وصفاته ، فقال : « الأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه

عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير الحاد لا فى أسمائه ولا فى آياته .

ثم قال : « وطريقتهم فى ذلك تتضمن اثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » . ففى قوله ليس كمثله شىء رد للتشبيه والتمثيل وقوله وهو السميع البصير ، رد للإلحاد والتعطيل ، والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل ، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى: « فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً . »

وقال تعالى : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وقال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله » وقال تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » .

وقال تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من أفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، مالكم ، كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » .

وقال ابن تيمية ، وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله فى محكم آياته كقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، بكاملها . وقوله : « قل هو الله أحد الله الصمد .. السورة » .

وقوله : وهو العليم الحكيم ، وهو العليم القدير ، وهو السميع البصير وهو العزيز الحكيم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير .

وقوله : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقوله فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » .

وقوله رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه . وقوله : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه » .

وقوله : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » ...

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي في أسماء الله تعالى وصفاته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليه وسلامه أجمعين .

وقال ابن تيمية : وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار والمشركين الذين أوتوا الكتاب ومن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة والباطنية ونحوهم فإنهم على ضد ذلك ، يصفون بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات

والمعدومات ، والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلا يستلزم نفى الذات ، فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين ، فيقولون لا موجود ولا معدوم ولا حى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات وإذا وصفوه بالنفى شبهوه بالمعدومات فسلبوا النقيضين ، وهذا ممتنع فى بداهة العقول ، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب وما جاء به الرسل ، فوقعوا فى شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات إذ سلب النقيضين يجمع النقيضين كلاهما من الممتنعات وقد علم من الاضطرار أن الوجود لا بد له من موجد واجب بذاته غنى عما سواه قديم أزلى ، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلا عن الوجوب أو الوجود أو القدم ، وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات ، دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا فى الذهن ، لا فيما خرج عنه من الموجودات ، فجعلوا الصفة هى الموصوف ، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هى الأخرى ، فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جحداً للعلوم الضروريات ، وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا لله الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بصير ، بلا سمع ولا بصر . فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور فى غير هؤلاء الكلمات .

وهؤلاء جميعهم يفرون من شىء فيقعون فى نظيره وفى شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل ، ولو أمعنوا النظر لسووا بين المتماثلات

وفرق بين المختلفات كما تقتضيه المعقولات ولكانوا من الذين أوتوا العلم الذين يرون أنما أنزل إلى الرسول هو الحق من ربه ويهدى إلى صراط العزيز الحميد . ولكنهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات يسفسطون فى العقليات ويقرمطون فى السمعيات ، وذلك أنه قد علم بضرورة العقل أنه لابد من موجود قديم غنى عما سواه إذ نحن نشاهد حدوث الحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع وقد علم بالاضطرار أن المحدث لابد له من محدث والممكن لابد له من موجد كما قال تعالى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقاً خلقهم .

يتبين من هذه الأمثلة التى اقتبسناها من الرسالة التدمرية لابن تيمية أن هناك صراعاً عنيفاً فى الآراء بينه وبين القرامطة الباطنية ومن اشتق منهم والفلاسفة والمعتزلة فى بعض آرائهم ولقد أوضح ابن تيمية بعض ما جاءوا به وأورد رأيه .

وصفوة ما جاء فى آرائه فى هذا الباب : أن ما ورد فى القرآن الكريم من الأسماء والصفات فى ذات الله وصفاته مقرر ثابت لا ينكر ولكنها لا تخضع لمقاييستنا نحن البشر ، فله استواء معلوم وله سمع ليس كسمعنا وبصر ليس كبصرنا وقدرة لا تشبه قدرتنا ، ومقته وغضبه وحبه وانتقامه ورضاه أمور على غير ماهو معروف بيننا ، فهو قديم غنى عمن سواه ، وأن الضرورة تقتضى ذلك وتقتضى هذه القاعدة المنطقية بمقدماتها ونتائجها ، وهو : أن الممكن لابد له من موجد ، والله واجب الوجود هو موجد هذا الكون وإذا سمى الله نفسه سميعاً بصيراً فى قوله : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا » وسمى بعض عباده سميعاً بصيراً فى

قوله : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » . فإنه ليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، كذلك ليس المتكبر كالمتكبر والجبار كالجبار فى الآيات التى سمى الله نفسه بذلك وسمى عباده بها .

لم يوجه ابن تيمية إصلاحه إلى العقيدة فقط بل اتجه إلى إصلاح اجتماعى خطير إلى مكانة المرأة فى بيتها فاختلف مع علماء عصره فى شأن الطلاق إذا كان يميناً وذلك إذا قال الرجل : « الطلاق يلزمنى لأفعلن كذا أو لا أفعل كذا فيحلف به على حض لنفسه أو لغيره أو تصديق خبر أو نفيه . فإن ابن تيمية يجعله من قبيل الأيمان التى لا تعقد بالله ولا لله وإنما تعقد بمخلوق أو لمخلوق مثل أن يحلف بالطواغيت أو بأبيه أو الكعبة أو غير ذلك فهذه يمين غير محترمة فلا تنعقد ولا كفارة بالحنث فيها باتفاق العلماء(١).

ويستدل على ذلك بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية ولا يجعلها تدخل فى أيمان المسلمين لقوله صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك)

وقد اشتد الخلاف بينه وبين علماء عصره حتى طلبوا من السلطان أن يأمر بمنعه من الافتاء بمثل هذه المسائل ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه بالسجن فى أغسطس عام ١٩٢٠ وسجن فى قلعة دمشق ولبث فى السجن خمسة أشهر وثمانية عشر يوما .

ولم ينس ابن تيمية فى إصلاحاته وصيحاته سياسة الملك فكتب رسالته السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، وجعل الإمارة قوام الأمة وواجباً من واجبات الدين لا يقوم إلا بها ، لأن المجتمع يقتضى ذلك فى رأيه ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة ، ولذلك قيل إن السلطان ظل الله فى الأرض كما قيل : « سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » .

---

(١) رسالة الاجتماع والافتراق .

ويرى ابن تيمية أن الإمارة دين وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لا بتغاء الرياسة أو المال بها .

وينكر على الإمارة الاستبداد واحتجان السلطان والمال ، وينذر بما أنذر الله به عباده فى قوله : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق » وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويعنى بذلك رؤساء الدول الذين يستبدون بالملك ويفسدون فى الأرض ويقول إنهم شرار الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ويحبب الإطاعة من الرعية والمشورة من الراعى .

قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وقال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

وأولو الأمر الذين ذكرهم فيما مر صنفان عنده : الأمراء والعلماء

وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهم أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ولرسوله واتباع كتاب الله ، ومتى أمكن فى الحوادث المشكلة معرفة مادل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب ، وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب ، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه .

ويفتتح ابن تيمية هذه الرسالة بأداء الأمانات ويقسمها قسمين يدير بأحدهما الولاية والثانى الأمانات من الأموال ، ويبدؤها بالحديث : « من ولى من أمر المؤمنين شيئاً وهو يجد من هو أصلح المسلمين منه فقد خان الله ورسوله » .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

وبذلك يحارب ابن تيمية المحسوبية ، ولا يريد للولاية إلا الكفوء القدير المستحق للولاية الذى ينوب عن الخليفة أو السلطان فى الأمصار لكيلا يستذلوا الناس ولا يحكموا بالعدل بينهم . والولاية كما قدم عنده أمانة بدليل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وينصح ابن تيمية أولى الأمر أن يختاروا الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه . وإذا فعلوا ذلك بعد التحرى والتدقيق فقد أدوا الإمارة حقها وقاموا بالواجب .

ويستمر ابن تيمية فى هذه الرسالة ، يفصل واجبات الإمارة ، وواجبات الولاة ، وواجبات الرعية حتى يستوفى الحاجة التى كانت أيامه تحتاج إليها ، ويفصل بعد ذلك الحدود والحقوق وصلات الناس بإمامهم وخالقهم وبأمثالهم من الناس يستمد ذلك من القرآن الكريم والحديث وأقوال السلف الصالح . وموجز القول : ما ترك هذا العربى المصلح باباً

من أبواب الفساد المنتشر فى أيامه إلا أوصده ووقف قلمه ولسانه وسيفه للخلاص منه .

كانت التهم تكال له جزافاً وكان حساده يؤلبون عليه السلطان وولاة الأمور فى كل حين ، وكان السجن والحرمان من بعض وظائفه وتقييد حريته ومنعه من الكلام جزاء هذه التهم ، لقد اتهم بمشايعة مذهب التجسيم ظلماً فحكم عليه بأن يلقى هو وأخوه فى الجب بقلعة الجبل فى القاهرة فبقى فيه سنة ونصف سنة وخرج منه عام ١٣٠٨ م وبعد أيام قلائل من خروجه اعتقل مرة أخرى ، وحبس فى برج الإسكندرية فلبث فيه ثمانية أشهر فلما أخلى سبيله عاد إلى القاهرة فعين مدرساً فى مدرسة أسسها السلطان ناصر وقد امتنع عن الفتيا للسلطان بما يجيز له الانتقام من أعدائه ، وكيف يفعل ذلك ابن تيمية وهو حر أبى ، وفى أغسطس عام ١٣١٨ منع بأمر من السلطان أن يفتى فى مسألة الحلف بالطلاق ، ولما لم يخضع لهذا الأمر حكم عليه فى أغسطس عام ١٣٢٠ بالسجن فى قلعة دمشق وأفرج عنه بعد أن لبث فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً بأمر من السلطان ثم أعيد إلى السجن عام ١٣٢٦ بعد أن ظفر أعداؤه بفتواه فى مسألة شد الرحال إلى القبور التى كان أصدرها عام ١٣١٠ وقد أخليت له فى هذه المرة غرفة كان يخدمه فيها أخوه . وفيها أقبل على تفسير القرآن وكتابة الرسائل للرد على الخصوم وكتابة المؤلفات حول ما حبس من أجله ، فلما علم خصومه خبر هذه المؤلفات ، وشوا به فجرد من كتبه وأوراقه ومداده ، فكانت صدمة شديدة لم تخففها كثرة الصلاة وقراءة القرآن فمرض عشرين يوما وتوفى فى الليلة الثانية والعشرين من شهر ذى القعدة عام ٧٢٨ الموافق ٢٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٢٨ .

وقال الذهبى : وفى هذه السنة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة هـ فى ليلة اثنتين وعشرين من شعبان مات الشيخ الإمام العلامة الحافظ الزاهد

القدوة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن المفتى شهاب الدين عبد الحليم ابن شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن عبد الله ابن أبى القاسم بن تيمية الحرانى ثم الدمشقى معتقلا بالقلعة وغسل وكفن فأخرج وقد اجتمع خلق كثير بالطرق وامتلأ الجامع والكلاسة والحوانيت كيوم الجمعة أو أكثر وصلى عليه أولا بالقلعة الشيخ محمد بن تمام ، ثم بجامع دمشق بعد الظهر واشتد الزحام ، وألقى الناس عليه عمائمهم ومناديلهم للتبرك وارتص الناس تحت النعش وشيعه الخلائق فى جوار من أبواب البلد ومعظمهم كان من باب الفرج مع الجنازة وعظم الأمر بسوق الخيل ، وتقدم فى الصلاة عليه هناك أخوه وانتشر الناس والنسوان على الأسطحة وإلى قبلى مقابر الصوفية فدفن إلى جانب أخيه الشيخ عبد الله وحزر النساء بخمسة عشر ألفاً ، وأما الرجال فحزروا بستين ألفاً وأكثر إلى مائتى ألف وكثر البكاء حوله وختمت له عدة ختم ، وتردد الناس إلى زيارة قبره أياماً ورويت له منامات صالحة ورثاه جماعة ، وكان مولده بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وطلب الحديث وقرأ الكثير ، ووجدت بخط الشيخ كمال الدين بن الزملكانى أنه اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها ، وكان آية فى الذكاء وسرعة الإدلاء بحراً فى النقليات ، رأساً فى معرفة الكتاب والسنة ، هو فى زمانه فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكثرة التصنيف ، وما رأت عيناى مثله ولا رأى مثل نفسه فى العلم .

ترك ابن تيمية الحياة الدنيا وهو مؤمن أن تعاليمه ستأخذ مكانتها فى قلوب الناس ، ولكنه لم يدر أن الناس يجتمعون على نعشه يرمون عمائمهم ومناديلهم للتبرك به ويتخذون قبره مزاراً ، وتروى عنه المنامات الصالحة وغير ذلك من الأمور التى كان يحاربها فى حياته . لقد كان هذا الشيخ عظيما فى أعين الناس ، عظيما برأيه وشجاعته وقوة إيمانه عظيما بثقته بالله الواحد القهار .

لقد حدث المؤرخون أن ابن تيمية صنف خمسمائة مؤلف، ولكن والأسفاه لم يصل إلينا إلا نيف وستون كتاباً انتشر القليل منها .

وتكاد تكون هذه المؤلفات دفاعاً عن وحدة العقيدة وتبياناً لشأن الإسلام فى قلوب حملته وفى هذا العدد الضخم من المؤلفات دلالة على جهد هذا العلامة الكبير والمصلح العظيم ودلالة على مبلغ حرصه على مكانة هذه الأمة التى تقسمتها الأهواء وتنازعتها ميول الموالى واتجاهاتهم لإضعاف شوكتها والقضاء عليها . ولا شك فى أن كثيراً من مؤلفاته التى فقدت إنما فقدت عن طريق الخصوم الذين سعوا فى إتلافها وإخفائها .

أخذ صوت هذا العالم الجليل يدوى فى أنحاء الجزيرة العربية وفى البلاد التى يظللها القرآن فتمكن من قلوب المؤمنين وأثر تأثيراً كبيراً . وقد خلفه تلميذه ابن القيم الجوزية وسار على نهجه فكتب وألف وظلت تعاليمهما معاً تنتقل فى أصلاب الحياة من طور إلى طور ، والزمن شحيح لا يلد المصلحين والعباقرة إلا بمقدار ، وإذا انفلت من حضنه مصلح تنكر له وأدار له ظهر المجن وهيأ الخصوم . وما كان ابن تيمية يدرى أن يهيىء الله لتعاليمه رجلا من قلب الصحراء يدرسها فيهتدى بهديها وينسج على منوالها فلقد أتاح لتعاليمه محمد بن عبد الوهاب ، ولد ابن عبدالوهاب عام ١١١٥هـ ودرج فى بلدة صغيرة تسمى عيينة من أعمال نجد وتعلم دروسه على شيوخ الحنابلة ، ومنها ذهب إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليكمل علومه ، ولما عض على قارحة الكمال حمل عصا التسيار وشرع يطوف فى أرجاء العالم الإسلامى فوصل البصرة وأقام بها وتركها إلى بغداد وأقام بها ، وكان مجموع الإقامتين بالعراق تسع سنين ، ثم ذهب إلى كردستان ، وإلى همذان وأصفهان فألقى عصا التسيار فدرس فلسفة الأشراق والتصوف ، وذهب إلى قم ومنها عاد إلى بلاده ، وانزوى فى داره مدة من الزمن وخرج بعد ذلك إلى الناس يدعوهم يبشرهم وينذرهم ويستهزىء

بأفعالهم وأعمالهم الوثنية ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى كلمة لا إله إلا الله يستدل بالقرآن والحديث ويشرح أدلته شرحاً وافياً ، يحاول فيه صدق الحجة والإقناع . ولكنك لا تبصر فى ثنايا شرحه وحجيجه ما كنت تراه فى كتب ابن تيمية ، مما يدل على أن ثقافة ابن عبد الوهاب لم تصل إلى ذلك الأفق الواسع الذى كان ينبسط أمام ابن تيمية ، ومع ذلك فقد أدرك سر انهيار هذه الأمة . ووجد مفتاح السر فى تبديل العقيدة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . لقد وجد التوحيد تحيط به الأشواك والعوسج وتأشب حوله أدغال لا يستطيع أحد أن ينفذ إليه إلا بسلطان . وأن المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبأية تركت آثاراً امتد بها الزمن وطال حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها وأصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها ورأى الأوثان والأصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد عادت ثانية فصدع بقوله تعالى « اعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً » . وقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألاتشركوا به شيئاً » . « فلا تدعوا مع الله أحداً » . « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . »

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » . قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ، إن كنتم صادقين !

بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون . وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه ، منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار .

بمثل هذه الآيات البينات سلك ابن عبد الوهاب سبيل أستاذه ابن تيمية فى توجيه الناس إلى عقيدة التوحيد التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة إلى الإيمان الصافى إلى الارتباط بالله وحده . وفى هذه الفكرة وحدها معنى السمو والرفعة ومعنى الاعتصام بحبل متين لا ينقطع والنفس التى ترتبط بالله لا تذل ولا تخضع لأحد ، ولا توجد نفس أذل من النفس التى تتمرغ أمام صنم ضخم منحوت من حجارة أو شجرة نابتة ، ولا توجد نفس أذل من النفس التى تتخذ أحبارها ورهبانها أربابا من دون الله أو تتخذ أنداداً تحبهم كحبها لله ساء ابن عبد الوهاب هذه الذلة ورأى الناس قد علقوا آمالهم وأعمالهم على غير الله واطمأنوا إلى المخلوقات يستشفون بها من أمراضهم وعللهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم وطفق الناس فى البلاد يأكل بعضهم بعضاً لفساد العقيدة وضعف الإيمان فلم يربدا من أن يهزهم هزا ولم يجد شيئا يبعث فيهم الحياة الصالحة والحياة العزيزة إلا الرجوع إلى عقيدة التوحيد إلى الإيمان بالله إلى المبادىء التى جاء بها الإسلام فى أوله . ووجد العودة إلى هذه الفكرة وحدها كفيلة برجوع القوة والعزة التى كانت للإسلام فى سالف عهده ، وللمؤمن المخلص الذى كان لا يرهب أحداً إلا الله فى تغيير المنكر والدعوة إلى الحق .

فأوذى بدعوته وحورب فى بلدته . ثم هجرها إلى الدرعية حيث وجد القوة تعين الدعوة والسيف يحرس مبادئه . فقويت شوكته وانتشرت دعوته . وسار فى عرض بلاده يعلم ويصلح حتى اكتمل له العدد والعدة

ومشى إلى مكة والمدينة فاستولى عليهما . فأصيبت دعوته فى هذا الاستيلاء بنكسة قوية . فقد اهتز العالم الإسلامى واهتز عرش الخلافة فى الآستانة لأمرين اثنين أولهما أن أتباعه هدموا القباب وأزالوا ما كان على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم من الحلى والزينة فانتفض المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لهذه الجرأة ورموا أصحاب هذه الحركة بالزندقة واتهموهم بالكفر .

وثانيهما خوف الخلافة فى الآستانة من هذه الحركة التى تؤذن بقيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية .

وعلى ذينك نبط عداء شديد لها وأخذت السلطنة التركية تعمل لقبرها فى مكانها قبل أن تتسع ، فأحكمت الدعاية ضدها وشرعت تعد العدة لمقاومتها . فلم ير السلطان محمود بدآ من الاستنجاد بعامله على مصر محمد على باشا أن يسير الجند للقضاء عليها فى مهدها . صحب هذا الإذن دعاية واسعة النطاق قام بها علماء المسلمين فألفوا الكتب ووضعوا الرسائل ونشروها بين الناس يحذرونهم وينذرونهم من البلاء المؤكد الذى سيصيب الإسلام إذا نجحت دعوة ابن عبد الوهاب .

جهز محمد على جنده بإمرة ولده طوسون وكتب إلى الشريف غالب شريف مكة يعلمه إعداد هذه الحملة ، وعلم إتباع ابن عبد الوهاب ما عزم عليه عامل مصر فتجمعوا له ، ولما التقى الجمعان انهزم جند طوسون تاركين وراءهم المؤن والذخائر ، ثم جاء طوسون المدد من أبيه فأعاد الكرة على جند ابن عبد الوهاب وهزمهم واستعاد المدينة ومكة .

وفى صيف ١٨١٢ م أعاد أتباع ابن عبد الوهاب الكرة على جند طوسون فاستولوا على مكة وكادوا يأخذون المدينة ، فبلغ الخبر محمد على فسار بنفسه بجند لجب عام ١٨١٣ ونزل جدة وحدث أن مات قائد الوهابيين فى درعية عام ١٨١٤ فانهارت قواهم ولم يصمدوا لجنود محمد على وسار

طوسون إلى نجد ، ثم اضطرته قلة المؤن إلى الرجوع عن عاصمتها ، وعاد كذلك محمد على بعد أن فتح طريق الحج للحجاج ، ثم عاد طوسون ولم يلبث قليلا حتى توفى .

وبعد أن استقر محمد على فى ولايته خشى أن تعود الوهابيين قوتهم تارة أخرى فكتب إلى عاملهم عبد الله أن يأتى إليه ومعه جميع الأموال التى أخذها جنده من الكعبة فاعتذر عن المجىء وأخبر أن الأموال قد ذهبت إلى أيدى الناس أيام أبيه .

فهدده محمد على وجهز عليه حملة بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، فأوغل هذا فى بلاد الحجاز ونجد وقبض على عبد الله وأرسله إلى أبيه فى القاهرة ومن ثم أرسلوه إلى الآستانة فطافوا به ثلاثة أيام فى شوارعها ثم قتلوه وبهذه الحملة قضى على الحركة السياسية نهائياً وخلع السلطان على إبراهيم باشا خلعة الشرف وعهد إليه بالولاية على مكة وأنعم على محمد على بلقب « خان » مكافأة له على إخلاصه وشجاعته فى وأد هذه الحركة العربية فى مهدها . وإذا كانت هذه الحركة قد أخمدت ، فإن أفكار ابن تيمية لم تمته واستمرت تفتق أذهان النبهاء من طلاب العلم والإصلاح ، واعتنقها كثيرون ممن يرون فى عودة التوحيد وخلاص العقيدة من الشرك عزة ومنعة .

وكان من هؤلاء الشوكانى أخذ تعاليم ابن تيمية ودرسها وشرح بعضها وعلق عليها وطفق يحارب البدع فى بلاد اليمن فثارت عليه حرب شعواء ورموه بالزندقة والخروج على العقائد ذلك لأنه ندد بالناس الذين يرون النفع والضر منوطين بالمشاهد وهو يرى أن الله وحده هو النافع والضار ، فتصدى له العلماء فى صنعاء ونازلوه بالجدل والمراء فصمد لهم ودافع دفاعا مجيداً عن عقيدة المسلمين فى كتابه « نيل الأوطار » الذى شرح به كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وأخذ عن ابن تيمية وعن ابن عبد الوهاب كثيرون فظهر المصلحون في الهند والعراق وبلاد المغرب يبشرون بمبادئ التوحيد ويدعون الناس إلى نبذ البدع والخرافات والتمسك بأصول الدين الصحيحة حباً بعزة الإسلام وخلاصه من شوائب البدع ولم تقتصر هذه الحركة الإصلاحية على بلاد العرب بل طفرت إلى الهند ونشأت حركة خطرة اتخذت سبيل السياسة سبيلا لها مع الوعظ والإرشاد وأخذت تهدد قوة المستعمر ولكن هذه القوة تصدت لها فأخضعتها وأمنت شرها .

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر استقبل العالم الإسلامي باعثاً ومبدعاً هو السيد جمال الدين الأفغاني ، ولد في عام ١٢٥٤ هـ ، ١٨٣٩ م وتوفي عام ١٣١٢ هـ ، ١٨٩٧ م من بيت في الذروة من قريش ، فهو ينمي إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، ويرتفع بهذا النسب صعداً حتى يصل إلى الحسين بن علي رضي الله عنه . ودرج بين عشيرة قوية الجانب محترمة الأرومة يجلها الأفغانيون لصلة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم ويهابونها لكثرتها وشدة شكيمتها ، وكانت لها سيادة على قسم من أراضي الأفغان ظلت تستقل في الحكم بها إلى أن سلب الإمارة منها دوست محمد خان ، فذهب والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل ، أخذه أبوه بالعلم والأدب ، فدرس العربية والتاريخ وعلوم الشريعة في التفسير والحديث ، والفقه وأصول الفقه والكلام والمنطق والسياسة ودرس الرياضيات : الحساب والهندسة والجبر ، وهيئة الأفلاك ، ونظريات الطب والتشريح وبعد أن اكتمل شبابه أخذ يطوف في العالم ، فحذق العربية والفارسية والتركية والفرنسية وعرف طرفاً من الإنكليزية والروسية .

فى هذه المعرفة والتجارب تكونت هذه الشخصية الجبارة ، ولقد ظهرت بوادرها فى براعة موقفه من اختلاف الأسرة الحاكمة فى الأفغان وعملت ثقة محمد أعظم خان به فأحله محل الوزير الأول يلجأ إليه فى عظائم الأمور وحل المشكلات . وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير جمال الدين لولا انشقاق حدث فى صفوف الأسرة أدى إلى هزيمة أعظم ، وبقى جمال لم تمسسه يد سوء لقوة العشيرة وهيبتها ، وبدا له أن يسافر إلى الهند ، فعز على حكومة الهند أن تراه يجول فى الهند وحده حراً . فأرادت أن تحد من ذلك فحددت له مكاناً ينزل فيه ومع هذا فقد استقبل على الحدود استقبالا منقطع النظير — وأخذت الوفود تفد عليه . فوفد فى اليوم الأول عشرات من المعجبين به . ثم صارت العشرات مئات حتى صار المستفيدون من فضله يسعون إليه بالجماهير المجمهرة ينصتون إلى أقواله ودروسه فارتجت أقطار الهند وهرع أكابر العلماء والراجات ومن بين هؤلاء من لاتستطيع الحكومة منعه من الاجتماع بجمال الدين وعرفت الحكومة آراءه وما يبثه فى جماعات الأمة ، فقصرت الحكومة الإقامة على ماتم منها وطلبت منه أن يغادر الهند حالا ، فهاجت الجموع وماجت من هذا الأمر ووقف جمال الدين بينهم خطيباً وقال : « يأهل الهند ، وعزة الحق لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً لأصم طنينكم آذان بريطانيا العظمى ولجعل فى أذن كبيرها غلادستون وقراً » « ولو انقلبت ملايينكم سلاحف وخضتم البحر وأحطتم بجزر بريطانيا لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً » .

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع ، فقال لهم : « اعلموا أن البكاء للنساء ، ولم يأت السلطان محمود الغزنوى الهند باكيا بل أتى شاكياً سلاحه ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم » .

من نفوس الهنود وأيقظها من رقادها ، وارتعدت فرائص المستعمر فرقا من هذه الظاهرة العجيبة فى أقوال هذه الشخصية الجبارة فلم تتركها فى الهند إلا يوماً واحداً بعد هذه الخطابة ، سار جمال الدين متجهاً إلى الآستانة إلى مركز الخلافة الإسلامية لعله يجد فيها أرضا خصبة ينمو بها زرعه ، فلما رآه الصدر الأعظم عرف فضله وأنزله منزل الكرامة ، وأجمعت قلوب الأمراء والوزراء على حبه ، وتناقلوا المدح والثناء على علمه وأدبه فعين عضواً فى مجلس المعارف ورأى آراء لم تعجب رفاقه فى هذا المجلس ومنهم شيخ الإسلام خاصة . وهو الذى حفظها حتى وجد فرصة فأوقع فيه وادعى عليه باطلا من القول وزوراً وظل يلاحقه حتى صار باطل شيخ حقا على جمال الدين . فاضطر إلى ترك الآستانة ، بعد أن أنب ونبه وأنذر وأوضح : أن الأمة هى مصدر القوة ، ومصدر الحكم ، وإرادة الشعب الحر هى القانون المتبع للشعب ، والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادما له وأميناً ، وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق شيعا وأحزابا وتستحكم فى أفراده محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بلغة من العيش ، مثل هذا الشعب كمثل الأنعام السائمة أو أضل سبيلا ، ومثل هذا الشعب تصدق عليه قاعدة جور ، أوجدها المستبدون وهى القول السابق : « مشيئة الملك قانون المملكة[1] » .

خرج جمال الدين من الآستانة فجاء مصر تتقدمه كوكبة من المديح والثناء ووصلها فى أول محرم الحرام ١٢٨٨ هـ و ٢٢ آذار ١٨٧١ فاستقبله رياض باشا فأكرمه ونعمه ، وصار بيت جمال الدين مثابة يفد إليه طلاب العلم ، وشرع يعلم ويوجه ، وفى كل يوم يعظم قدره فى نفوس طلابه حتى ملأت سمعته سمع العالم وكان لشخصيته وعبقريته المبدعة أثر كبير

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٧ — ٣٨ .

فى تكوين الشخصيات وتنشيط العقول ، وحل عقد الأوهام من الأحلام ، حمل طلابه على التفكير والكتابة فنشطوا لما أراد ، وبرعوا وتقدموا فى مضمار الحياة ، فكان تقدم فن الكتابة من إبداعه والتفكير الحر من خلقه وإيجاده .

خلق فى مصر جواً تسمع فيه كلمات عن الحرية والاستقلال والتكوين والإنشاء والإدارة والشعب والشورى والحاكم . فدار فى أذهان الإنكليز أن هذا الرجل سوف يوقظ الرقود وينبه الغافلين وزينوا للخديوى أن يخرجه من مصر ، فاتخذ من مناقشته فى حكم الشعب وسيلة وحفظها له حتى تهيأت الفرصة فأخرج من البلاد .

رأى جمال أن يذهب إلى الهند ، ولما وصل إلى السويس جاءه قنصل إيران وبعض التجار وجماعة من تلامذته يحمل كل منهم مقداراً من المال ولما عرضوه عليه أجابهم أنتم إلى هذا المال أحوج ، فإن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » . وصل حيدر آباد الدكن واتخذها مقراً ، ثم حدد له المقر أثناء ثورة عرابى فلما انتهت هذه الثورة سمح له بالذهاب حيث يشاء . فقصد جمال الدين أوربا ووصل إلى لندن فأقام فيها مدة ثم سافر إلى باريس فاستدعى صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده وأخرجا معاً جريدة « العروة الوثقى » لسان حال جمعية العروة الوثقى التى تألفت من خيار القوم ، وكادت هذه الجريدة تفتح آفاق العالم الإسلامى فى الهند ومصر والبلاد العربية والإسلامية الأخرى لولا كيد المستعمرين الذين وقفوا لها بالمرصاد ، فمنعت من دخول الهند ومصر ، وقد كتبت الجريدة بعد هذا المنع ما جاء فيه : « نلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم ، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب » .

ولما ظهرت حركة المهدى فى السودان كتب جمال الدين يحذر الإنكليز عاقبة سوء فعلهم ، وثابر على الكتابة يعدد خطيئاتهم ويفند حجج وزرائهم ، فاضطروا أن يرسلوا إليه يستدعونه ، فلما قدم لندن أثنى عليه اللورد سالسبورى وقال له : « إن بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رأيك قدره ، ويجب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح به ظروفنا ، لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان سلطانا عليه لتستأصل جذور الفتنة وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا » .

فأجابه جمال الدين : تكليف غريب وسفه فى السياسة ما بعده سفه أسمح لى ياحضرة اللورد أن أسألك ، هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ » .

أخذ جمال الدين يحث الناس على تفهم القرآن والتمعن بمعانيه ومقاصده وحضهم على الترفع عن التقليد وقال : إن من يفهم القرآن فهماً صحيحاً ويعرف صحيح الحديث ويثقف ثقافة تعينه على صحة الحكم بمنطق واضح يتمكن به من الاستنتاج فذلك هو المجتهد الذى يعرف الأحكام . ثم قال « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نص سد باب الاجتهاد وقال ، إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهماً وتدقيقاً ، لقد اجتهدوا ، وأحسنوا جزاهم الله عن الأمة خيراً ، ولكن لا يصح أن تعتقد أنهم أحاطوا بأسرار القرآن كلها ، أو تمكنوا من تدوينها بكتبهم ، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر وتحقيقهم واجتهادهم إن هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم والحديث الصحيح من السنن والتوضيح إلا كقطرة من بحر أو ثانية من دهر والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وعلمهم مالم يكونوا يعلمون »

كان جمال الدين يجد فى القرآن عاصماً للأمم الإسلامية من الفرقة والخور والضعف وكان يرى فيه بعثاً للعزة والمنعة والشجاعة ، ويرى الجبن عاراً ما بعده عار ويبسط القول فيه ويقول : « ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء ؟ أليس هو الجبن ؟ إن أبناء الملة الإسلامية ينبغى أن يكونوا بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم بما يعملونه إنما يبتغون رضاه ، ويعلم من فى القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب . . الخ الآية .

ثم يقول لا يظن أحد أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجبن فى قلب واحد ، كيف يمكن هذا ؟ وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام .

كان يدعو الناس أن يرجعوا إلى عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح ، تلك العقيدة الصافية التى لم تشبها أخلاط الفرق الناشئة بعد الصدر الأول من الإسلام التى توزعت أصوله وأخطأت فهمها واتبعت ما يبثه الزنادقة والباطنيون من البدع ، وما وضعه الناقون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التى حورت الإسلام تحويراً شديدا ، وأبعدته عن أصوله ، ففرقت شمل هذه الأمة وأضعفت كيانها وتضعضعت أركانها بالتواكل الذى جاءها من أهل الحلول والتصوف وأهل الزهد وأهل الإباحة .

وبينما كان السيد جمال الدين يدعو الناس إلى سبل الرشاد ويهيب بهم أن ينفضوا عن رءوسهم غبار الماضى السحيق ويفيقوا من نومهم العميق ويتمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالتوحيد ، كان يقف بالمرصاد لأعداء الإسلام الذين عبأهم الاستعمار فأخذوا يشنون عليه حرباً شعواء فألف رسالة يرد بها على الدهريين تدل على منطق واضح وفكر صادق الحكم ومما جاء فى هذه الرسالة :

« إن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد . وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وأنه أشرف المخلوقات . والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال باطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة بأن تسمى بيت الأحزان ، وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها .

والخصال الثلاث : الحياء ، والأمانة ، والصدق ، أما الدهريون « الطبيعيون » فقد وضعوا مذهبهم على أساس بطلان الأديان كافة وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضيعة ، ووجوب إزالة العقائد الثلاث ومحو الخصال الثلاث من الإنسان ، وبنوا على هذا الأحق لملة من الملل أن تدعى لنفسها شرفا على سائر الملل . ولا أن تعتقد أنها أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ، وقالوا إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات وليس من المزايا ما يرتفع به عن البهائم بل هو أحسن منها خلقة وأدنى فطرة .

وقالوا وبئس القول : إن الحياء من ضعف النفس ونقصها فإذا قويت النفوس وتم لها كمالها ، لم يغلبها الحياء فى عمل ما ـ كائناً ما كان ـ

فيجب على زعمهم أن يسعى الإنسان فى معالجة هذا الضعف ومقاومته ليفوز بكمال القوة وهو قلة الحياء ، ثم قالوا وفى مقدمتهم أبيقور الدهرى وأتباعه رداً على القول : إن الإنسان أشرف المخلوقات ، ما بال الإنسان معجب بنفسه مغرور بشأنه ، يظن أن الكون العظيم إنما خلق لوجوده الناقص ، ويزعم أنه أشرف المخلوقات وأنه العلة الغائية لجميع المكونات وأن الإنسان من جنونه على زعمهم اعتقاده أن له عوالم روحانية نورانية ومعاهد قدسية ينقل إليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ولذة لا يخالطها كدر ، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفا نظام الطبيعة العادل ، وسد فى وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا .

والصدق والأمانة وغيرها من الأمور الوضعية التى تقيد الناس بها جهلا ولم يتقيد بها الحيوان إلى غير ذلك .

وقد أفاض السيد بتفنيد هذه المزعومات بمقدمات صادقة واضحة ، ومن ذلك : أن فى الاعتقاد بالله صونا للجماعة وحفظا لكيان المجتمع فإن الدولة لا تستطيع أن تحكم إلا بالظاهر ، ولا ترفع الحيف والظلم إلا إذا رأت ذلك بعينها ، ولكن من الذى يسيطر على الأمور التى تجرى فى الخفايا من الذى يردع السارق عن سرقته والقاتل عن القتل والمختلس عن الاختلاس ؟ لا شك فى أنه لا يوجد رادع غير الله ، ولا وازع غير الدين فالدين ضرورى للبشر ولتكوين مجتمعهم ، من أين للحكومة الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر ؟

هب أننا أخذنا بقية أباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من إزالة العقائد الثلاث والخصال الثلاث وتسنى لهم أن يبدلوا الحياء بقلة الحياء ،

والصدق بالكذب ، والأمانة بالخيـــانة ، وصون الأعراض بالهتك . والإباحة ، والاشتراك . فبأى نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ؟

كان هم جمال الدين أن يرى الإسلام قويا فى دولة قوية ، وكان لا يجد حداً بين الدين والدولة ويرى أن أحدهما يكمل الآخر ، فالدين عنصر هام من عناصر مقومات المجتمع . والدولة لن يتم لها مجتمع لا دين له .

لقد بذل جمال جهده وأنفد عمره فى تحقيق هذا الرأى ، ولكن الإسلام كان موزع الأهواء والميول فتمسكت به رواسب الماضى السحيق التى خلفتها السيئة والباطنية .

وجد فى السلطان عبد الحميد جانباً من الخير فأبان له النصح وأشار عليه أن يجعل من ولايات امبراطوريته التى تبلغ ثلاثين ولاية خديويات على غرار خديوية مصر ، تبقى كلها خاضعة للخلافة ، يأتمر الخديوى بأمر السلطان ، والعساكر فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق بجيوش السلطان ، ورعية طائعة خاضعة ، فزوى عبد الحميد وجهه وأبى . وقال لجمال : ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ » فقال جمال : يبقى جلالة مولاى السلطان ملك أولئك الملوك ، فإذا قويت هذه الخديويات فإنه سرعان ما تنضم إيران وأفغان والهند ويصبح الإسلام قوة عتيدة يرهب الغرب جانبها ، وتهدأ ثائرته على الإسلام .

ومن أجرأ الآراء التى كان يثيرها طلبه استعراب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة ، فكان يقول : « لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستعربوا وتراسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون على الأقل ولكانوا أعز جانباً وأغنى مملكة فى دول الأرض » ومما كان يحز فى نفسه أن الأتراك كانوا يحرون وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربى لسان الدين والأدب والفضائل باللسان التركى .

وكان ينبه العالم الإسلامى على أهمية مصر وموقعها ويقول :

فى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى وكشف الإنجليز عنها صون للممالك العثمانية ، وغلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية » . وقال : « وعزة الحق إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم ولرفرفت على أجداثهم ولأحدثت لأعدائهم أحلاما مزعجة ومراء مريعة وما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد وأقصر طيات المسافة فى الذلة والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية » . هكذا كان جمال الدين يبشر وينذر ويحض النفوس ، ويحرك الهمم ويشير إلى مواطن الخطر ، أينما حل حلت معه فكرة العرب والإسلام ، إذا وقف فى الهند أشار إلى مواطن الخطر التى تهدد مصر . وإذا ذهب إلى الآستانة ولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وإذا ذهب إلى باريس كتب عن مصر وعن بلاد الإسلام . جبل دمه بحب العروبة واتجه فكره إلى إيجاد أمة قوية تحفظ هذا التراث الذى فيه العزة والمنعة . نفخ الصور فى آذانها فلم تتململ ولم تبعث وأنى له ذلك والعظام نخرة ليس لأحد قدرة على بعثها إلا الباعث القدير والأمل المرتقب .

ولما ترك جمال الدين مصر قال : « مصر أحب بلاد الله إلى وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم . »

وهو قول حق فقد كان محمد عبده فى الذروة من هذا الوصف شأنه فى علو الهمة شأن كل مبدع يريد بعث أمة وتكوين أجيال . أخذ محمد عبده عليه عن الأزهر وعن معاهد الدين فى أول أمره وقد استعصى عليه التعليم فى البداية ، ثم لان له فى النهاية ولكن ما كان هذا العلم يوائم هذه

الهمة ويوافق ذلك الذكاء حتى بعث الله لهذه الأمة جمال الدين الأفغاني فنزل مصر فيما نزله من بلاد الشرق الأدنى ، فكان كالغيث أنبت الخمائل فوق الربا فازدهرت وأثمرت . وكان الشيخ ثمرة من ثمار جمال الدين هيأه فيمن هيأ للنضال والإصلاح فى هذا الشرق الذى تعاقبت عليه المصائب واصطلحت عليه الأهواء والشرور فتركته يموج فى سحابة مظلمة لا يتبين فيها الرشد من الغى — لقد كان فى محمد عبده استعداد النبهاء ومواهب الأذكياء . جمع من علوم الأزهر ما وعى والتقى بجمال الدين فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة . فكان من امتزاج هاتين الثقافتين ثقافة ذات لون خاص فيها روح الإسلام وعزته وجرأته وإقدامه وإباؤه وإذا بالمحفوظ من القرآن والحديث صور وأشكال وأخيلة تموج بالقوة والسمو . وإذا الأدب العربى الذى تعلمه الشيخ أداة من أدوات الفصاحة والبيان تنقل هذه الصور والأشكال إلى أذهان الناس واضحة بينة تهز المشاعر وتعطف القلوب وترشد العقل إلى الحكم الصحيح .

رأى الشيخ محمد عبده جواً من المفاسد الاجتماعية والسياسية وفوضى فى الأمور الدينية . فقد ساءت العقيدة ، وضعف الإيمان ، وساد الشرك وعادت عبادة الأوثان واشتغل الناس بالرقى والنذور والموالد وتعلقوا بالأرواح والأشباح وما إلى ذلك مما يضعف النفوس ويبعدها عن التوحيد ورأى فى فساد العقيدة إضاعة للأخلاق فماذا يفعل ؟

لقد رأى أن هذا الضعف المنتشر والفساد الشامل يرجعان إلى جهل الناس بأصول دينهم بالقرآن والحديث ووجد أن التعليم الدينى على أساس متين ركن ركين فى إعادة مجد الأمة ، فلجأ إلى القرآن فاتخذه عاصماً والحديث فجعله دليلا ودعا إلى اتباع آثار السلف الصالح ، لأن فى هذا الاتباع رجوعا إلى العقيدة السليمة من شوائب البدع فى هذه الأصول التقى الشيخ محمد عبده بابن تيمية وابن عبد الوهاب ، ووجد فيهما مثلين

من أمثلة الإصلاح ، سارا على نهج القرآن والسلف الصالح من الرعيل الأول فى صدر الإسلام . وإن كان يختلف عنهما بسعة الأفق وسعة الثقافة باطلاعه على الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية .

التقى بهما فى توحيد الله ونبذ الخرافات والبدع ومحاربة الشرك والرجوع إلى القرآن والحديث فى توجيه الناس إلى السماء ليسموا ويرتفعوا عن التمرغ بالرغام على أقدام الأصنام ، فكل شىء على هذه الأرض ممكن يطرأ عليه التغيير والضعف ، أما الإله فى السماء فهو إله خالد ، لا تنطبق عليه مقاييسنا ، صفاته ليست كصفاتنا وأفعاله ليست كأفعالنا ، وما دام الأمر كذلك فهو واجب الوجود ، وما عداه داخل فى حيز الإمكانيات ، وما يدخل فى حيز الإمكانيات لا يستند إليه فى عبادة وتوجيه وإنشاء أمم وأجيال .

صدع محمد عبده بالحق فتكأكأت عليه الخصوم يرمونه بالزندقة والكفر لا لشىء سوى أنه موحد ، ينبذ الشرك ويحطم الأصنام ، وحسبك أن تجده يرد على الوثنيين والمشبهة والمجسمة والمركبة والمشركين فى سورة التوحيد أو سورة الإخلاص رداً واضح الحجة والبرهان :

« قل هو الله أحد » : الأحد هو الواحد الذى لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ، فليس بمادى ، ولا هو من أصول متعددة غير عادية كما يزعم بعض أرباب الأديان ، من أنه أصلان فاعلان أو أنه ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهى متعددة ، سواء أعقل ذلك أم لم يعقل ، فإن الله برىء منه ، لأن العقلاء أجمعت على أن موجد العالم وهو الله واجب الوجود ، ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء فلا يكون المجموع المسمى بالله أو موجد العالم واجب الوجود ، وكذلك الأفراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بمميزه ،

وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود فيكون كل منهما مركباً والمركب غير واجب كما ذكرنا ، فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً . فالله أحد .

« الله الصمد » من الكلمات الجامعة التى تملأ النفس مما قصد بها دون جهد ولا تعب ، فهذه الآية تقول لك إن حاجة مافى الوجود لا تتوجه إلى غيره وأن محتاجا لا يجوز أن يتوجه فى طلب حاجته إلى سواه فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهى إليه ، وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجاده ، وأن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصل مسبباً من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ماأمره الله بالبحث والنظر والتدبير فى مخلوقاته ، ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندها إلى مبدئها وهو الأمر الإلهى ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه عمل الكسب والإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ماهو وراء ذلك مما لادخل للإرادة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه فى المعونة عليها إلا بعد الأخذ بالأسباب إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملا .

وقوله الصمد يشعر بأنه الذى ينهى الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو فى ذلك يدعو إلى مايخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون أن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم فيلجئون إليهم أحياء ، أو أمواتاً ، ويقومون بين أيديهم ، أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يخشون الله بل أشد خشية ، ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلا بد أن يرد إلى ما أنزل جميع مايقع من الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره متى تطق صريح كتابه بخلافه ، وعلى الناس أن يرجعوا إلى الكتاب ،

فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا إلى العارف وطالبوه بالدليل منه وعليهم أن يهتموا بأن يعرفوا منه أصول ما يعتقدون وما يعملون فإن لم يفعلوا اختلف الآراء وحجبت المذاهب كتاب الله فدرس معناه وذهبت الحكمة من إنزاله عبثا لتعلق الناس بقول غير المعصوم وعماهم عن هدى المعصوم فكانوا بمنزلة من لم تأتهم رسالة وإنما يعملون بما يقول لهم زعماؤهم الذين لا يجدون دليلا على امتيازهم بالزعامة فيكونون مستمسكين بما لم ينزل به الله سلطاناً فيسقطون فى مهاوى الشقاء الدنيوى والأخروى .

فى تفسير هذه السورة تلتقى آراء محمد عبده وابن تيمية وابن عبدالوهاب فى وجوب الرجوع إلى توحيد الله والسمو بالمسلمين عن مواطن الشرك وحضهم على التمسك بكتاب الله الذى هو مصدر الشريعة الإسلامية ومصدر العزة والقوة . لم يمكن الزمن محمد عبده وجمال الدين أن يتموا رسالتهم فى نشر مبادئهم لإصلاح النفوس فقد دهمتهم قوة الاستعمار التى أخذت تمتد أيديها مد الأخطبوط خراطيمه ، فدهشا وأخذا تارة يوجهان الأنفس إلى منابت العزة والقوة فى عقيدة التوحيد وتطهير النفوس ، وأخرى فى حثها على مقاومة المستعمر ودحض دسائسه . واتخذ من جريدة العروة الوثقى ميداناً لعملهما : يردان على المستعمر مكايده ، ويردان على هادمى عقيدة التوحيد ومهاجمى الإسلام ، ويردان على مثبطى الهمم . وقد أخذ « القضاء والقدر » مكاناً كبيراً فى جدلها ، إنهما أرادا أن ينتزعا من صدور المخطئين فهمه سوء الفهم ، وأن القدر ليس كما يعتقد أصحاب الجبر . إن القدر الذى يعتقد به المسلمون قد أمرنا به فى شطر العمل من حياتنا ، لا فى شطر البطالة والكسل . ولم يأمرنا الله أن نهمل فروضنا ونبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم .

إن الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك

التى ترجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعثر عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نظرة الحياة كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قول الحق « الذين قال لهم الناس ، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

هكذا أخذا يصححان خطأ المسلمين فى فهم عقيدتهم ، ويبعثان فى نفوسهم ذكريات أمجاد السلف الأولين الذين فتحوا العالم ونشروا الإخاء والعدالة كان لهذا الاتفاق العجيب بين هاتين الشخصيتين صيحة داوية فى الشرق العربى بلغة عربية متينة تستند على القرآن وعلى تعليم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم التى لم تشبها شائبة البدع والخرافات ، وكانا فى حديثهما وخطبهما وكتابتهما حرباً على هذه البدع ووقفا لهذا الشرق الذى أخذت مطامع الأقوياء تمتد إليه فتنتقصه من أطرافه وأهله نيام فى غفلة عن عين الدهر اليقظ التى تفتحت للغرب ؛ لقد نشرا آراءهما فى جريدتهما التى أجملا مبادئها فيما يأتى :

١ — أن تكون خدمة الشرق فى بيان واجباته التى كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التى يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث فى أصول الأسباب والعلل التى قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا فى هذه الحيرة الرابكة التى ضل بها المرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارق المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة علتهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح فى المقاصد إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التى كان عليها أسلافنا التى هى كفيلة فى رد العزة والقوة لنا وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات ، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخير أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة مايتهمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم مايدور حولهم من الحوادث الجسام فى السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

٩ — تتخذ هذه الجريدة مبدأ الصراحة والحق وتسير على صراط مستقيم وترسل إلى من تعرفه ومن يريدها مجاناً ليتداولها الأمير والحقير والغنى والفقير. حسبك أن تقرأ طرفا من تفسير القرآن ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده وتطلع على العروة الوثقى التى كان يحررها مع شيخه وإمامه السيد جمال الدين الأفغانى وتقرأ رسالة الدهريين التى ألفها جمال ونقلها إلى العربية تلميذه الشيخ محمد عبده .

لاشك فى أنك تجد روحا من نفحة سماوية فى شخصيتين أيقظتا نيام العرب والشرق الإسلامى ونبهتا على خطر محدق به ونددتا بالبدع والخرافات التى ضعفت بها النفوس وضمرت الجسوم فذلت الرقاب التى نسيت قول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون » .

عبد الرحمن الكواكبى

نشأ عبد الرحمن الكواكبى فى مدينة حلب فى بيت دين وحسب ، أما الحسب فإن أسرته تنحصر فيها نقابة الأشراف لهذه المدينة وهى مكانة لا يناطها إلا من له وشيجة نسب بأهل بيت النبوة وأما الدين فإنه تخرج فى مدرسة الكواكبية التى سميت باسم هذه الأسرة ، درس علوم الدين وتفقه وتعلم التفسير وحفظ الحديث وبرع فى اللغة وأضاف إلى إتقان الفصحى إجادة الفارسية والتركية ونشىء فى بيت أبيه على العزة والكرامة والطبع المهذب حتى إذا شب واكتمل دخل ميدان الحياة يزينه علم وأدب وحسب وعزة تتمشى إلى الأبوة والجدود ، فكان مثال أخيه المسلم فى صدر الإسلام عف اللسان ، صريح القول ، ثابت الجنان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، تفتحت له أبواب الرزق فى وظائف الدولة تارة وأخرى

فى التجارة والكسب الحلال ، وطوراً بقلمه وآرائه بثها فى جريدة ينشرها وصحيفة يكتبها ، ورجل مثل هذا فى مثل ذلك الزمن لا يعدم الحساد ، ترقبه أعين الناس والسلطة تخشى على نفسها أى نابغة يبزغ فى هذه الغفلة الراقدة فى مطارى الزمن أن يكدر عليها صفوها ، أو يهز كتفها وهى تمشى سادرة فى خلواتها ، فأخذت تطارده وتضيق عليه منافذ الحرية والرزق حتى اتهم زوراً وعدواناً وأدخلوه السجن وحاكموه فبرأه الله .

ولما وجد بلدته جحيما تتأجج بالقسوة والبطش والخوف ، هجرها وضرب فى أرض الله يفتش عن منأى للكريم من الأذى ، فذهب إلى زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها وأوغل فى أواسط الجزيرة العربية وقطع صحراء الدهناء حتى وصل اليمن على ظهور الجمال ثم عاد فألقى عصا التسيار بمصر فكانت هذه الرحلات ميداناً لإحكام التجارب وتقوية الملاحظة ، اطلع فيها على حال المسلمين فى هذا الشرق ، وأبصر ما هم عليه من انهيار فى نواحى الحياة جميعها ، فانكب يدرس ويبحث ويعلل ويستنتج ويحكم فكان صادق الحكم سديد المنطق .

بدأ حياته مثلما بدأها زميلاه : جمال الدين ومحمد عبده ، القرآن مصدر أفكاره والعزة وحرية الرأى هدفه ، والرجوع إلى آثار الأولين والتخلص من البدع دعوته .

وعندى أنه أوسع أفقاً منهما معاً ، وإن كان مقلا موجزاً وكانا مكثرين ، وهو على إقلاله لم يقل عنهما شأناً فى التأثير . ورب جملة فيها معنى خطبة وعبارة فيها أثر مقالة .

لقد بث محمد عبده آراءه فى تفسير القرآن وتدريسه وكتاب التوحيد والعروة الوثقى ، وبث جمال الدين آراءه فى العروة الوثقى وكتاب الرد على الدهريين ، وبعض الخطب ونصائح الحكام التى ورد ذكرها فى مذكراته ، أما الكواكبى فقد قارع الاستبداد بكتابه « طبائع الاستبداد »

وهو يعلم قوة الخصم فى هذا القراع ، فلبث ثابت الجنان فصيح اللسان يهز قلبه كما يهز الكمى المشرفى لقد خضع الناس إلى العثمانيين الأتراك باسم الخلافة ، وخلدوا إلى السكينة والكسل وتركوا الأمر للطبيعة تطعمهم وتسقيهم ، حتى انقلبت جنان بلادهم إلى صحارى مقفرة ، وشاع الجهل والفقر والمرض والذلة ، واستغل الحاكمون بأمرهم هذه الحال فاقتعدوا مقعد الجبارة وتسموا بالخاقان الأعظم ، وحامى الحرمين وسلطان البرين والبحرين إلى غير ذلك من الألقاب التى تجفل منها نفوس الضعفاء وتعنو لها جباه الأذلة ، وطفقوا يتصرفون فى شئون الرعية كما يشاءون لا راد لأحكامهم ولا وازع لسلطانهم ، لا يتقيدون بنظام ولا بشرع ، وإذا ركب الراعى رأسه وسد على الناس أنفاس الحرية ، وخنق إرادتهم استعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء شأنه ، فذلت نفوسهم ، وإذا ذلت النفوس ركبها الزلف والملق ، والعبودية وملك التأله عقل الحاكم فيرى نفسه السيد المطاع ويرى فى الرعية المسود الخاضع . فى هذه الغمرة من الفساد بين الراعى والرعية تطلع رءوس البدع وتحل الأباطيل مكان الحقائق وتجد الخرافات طريقها إلى قلوب الضعفاء لتأوى إليها ، وتسكنها وتجعل عليها غشاوة فلا تعقل القلوب ، ولا تسمع الآذان ، ولا تبصر العيون إلا من رحم ربك ، وإذا وصلت النفوس إلى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت موازين الحياة وأصبح المرء خائفا على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه ، وإذا خافت النفوس صغرت ، وإذا صغرت أصبحت تمثل الدعة والهدوء ، وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك معنى انهيار الأمة .

بمثل هذه المعانى أخذ الكواكبى يشرح فى كتابه « طبائع الاستبداد » نتائج الاستبداد ويعرف المستبد والمستبد به وعلى مثل هذا وضع كتابه

« أم القرى » استعرض فيه أحوال المسلمين وما وصلوا إليه وطلع على الناس بآراء صائبة وحضهم أن يخرجوا على هذا الفساد ويربئوا بأنفسهم عن هذه الذلة .

وجد الكواكبي أن انهيار الأمة العربية ما كان إلا لتهاونها فى الدين وتركها ثغراً فى حياتها سرت منها أباطيل المبتدعة فبعدت هذه بهم عن أصول الدين الحقيقية ولو كان المؤمنون يقرءون القرآن بإمعان وتدبر لما ذلوا ففى القرآن معانى العزة ومعانى القوة .

لهذا أخذ الكواكبي يوجه الناس إلى عقيدة التوحيد « لا نعبد إلا الله » ونبذ البدع والخرافات والتقليد الأعمى والرجوع إلى القرآن والأخذ بآثار السلف الصالح من هذه الأمة ، ابتدع كتابه « أم القرى » كما ذكرنا آنفاً على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جمعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة « أم القرى » مركزاً لهذا المؤتمر الذى كان فيه المؤمن الشامى والقدسى والإسكندرى والمصرى واليمنى والبصرى والنجدى والمدنى والمكى والتونسى والفاسى والإنكليزى والرومى والكردى والتبريزى والتاتارى والقازانى والتركى والأفغانى والهندى والسندى والصينى .

وجعل شعار المؤتمرين « لا نعبد إلا الله » وجعل جدول أعمال المؤتمر البحث فى :

١ — موضع الداء .
٢ — أعراض الداء .
٣ — جراثيم الداء .
٤ — ماهو الداء ؟
٥ — ما هى وسائل استعمال الدواء ؟
٦ — ما هى الإسلامية ؟

٧ — كيف يكون التدين بالإسلامية ؟
٨ — ما هو الشرك الخفي ؟
٩ — كيف تقاوم البدع ؟
١٠ — قانون تأسيس الجمعيات .

وبعد أن أخذ المؤتمرون مكانهم ، وتجادلوا فى شئون الأمم المنحطة قال الشامى :

« إنى أرى أن منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطناً قدرية ظاهراً ، والحث على الزهد فى الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر والإقدام على عظائم الأمور وكالترغيب فى أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت وكفى بهذه الأصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع .

ويرى القدسى : أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت « ديمقراطية » تماماً فصارت بعد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة .

وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون ولا سيما المتطرفون منهم هذا التخالف فى الأحكام وسائل للإنقسام والاستقلال السياسى ، فنشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً متعادية سياسة متكافحة على الدوام ، وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع به أعداؤها .

وقال التونسى : إن بلادنا من تأصل الجهل فى غالب أمرائنا المترفين

الأخسرين أعمالا الذين ضلوا وأضلونا سواء السبيل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . إنهم يتشدقون بالإصلاح السياسى مع أنهم وأيم الحق يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؛ يظهرون الرغبة فى الإصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم وإذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يرجى شفاؤه .

وقال المولى الرومى وهو من أهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطنى ، ومرادورشاد ، وخلافة وخلع ومبعوث ، وممثوه ومختل إلى نحو ذلك من الألفاظ التى تمس سياسة الوهم .

قال هذا الرومى : عندى أن البلية فقدنا الحرية ، وما أدرانا ما الحرية هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه ، وقد عرف الحرية من عرفها : بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم . ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة فى المطالبة ، وبذل النصيحة ، ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار أو محتال ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض ، والأمن على العلم واستثماره ، فالحرية هى روح الدين وينسب إلى حسان ابن ثابت الشاعر الصحابى (رضى الله عنه) قوله :

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

وقال المجتهد التبريزى : يلوح لى أن انحطاطنا من أنفسنا إذ أننا كنا خير أمة أخرجت للناس نعبد الله وحده ، أى نخضع ونتذلل له فقط ونطيع من أطاعه ما دام مطيعاً له ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ،

أمرنا شورى بيننا تعاون على البر والتقوى ولا تعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وأجاب المرشد الفاسى : إننا كنا على عهد السلف الصالح شريعتنا سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة . . . ثم دخل بيننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب، وحصروا اهتمامهم فى الجباية وآلتها هى الجندية فقط فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طبعاً ، فهذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب وقد يضاف إليه شركهم الخفى الذى لا يشعرون به .

وقال المحقق المدنى : إن فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً للفتور العام ، بل لا بد لذلك من سبب أعم وأهم ثم قال أما أنا فالذى يجول فى فكرى أن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ، وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قياسهم فى الأمة مقام الأنبياء فى الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . ولكن بعض ضعيفى العلم وجدوا هذه المنزلة فوق طاقتهم فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظماء بالإغراب فى الدين وسلوك مسلك الزاهدين ، ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث ، فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً مملوءاً بلغط لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسنم مقامات اخترعوها ووضع أحكام نقضوها وترتيب فريات زخرفوها .

وهكذا يستمر السيد الكرا كى فى نقده المجتمع الإسلامى حتى يتم فى هذا النقد اثنى عشر اجتماعاً يعقدها ويتخيل المتكلمين فيها الذين يفتشون عن الداء ليضعوا عليه الدواء ، ويلخص أقوالهم جميعاً بموجز من القول فى جمل منها ما يجعلها أصولا ومنها فروعاً ، وإنا لذاكرون طرفاً مهماً منها ومحيلون القارىء على كتابه أم القرى الذى بسط فيه الكلام قال :

يستفاد من مذاكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشىء عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة . وهذه الأسباب منها ماهو أصول ومنها ما هو فروع لها حكم الأصول ، وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع وهى أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية ، وإنى أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذى استخرجته من مباحث الجمعية رامزاً للأصول منها بحرف الألف وللفروع منها بحرف الفاء وهى :

(١) الأسباب الدينية

من الأصول

١ — تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .
٢ — تأثير فتن الجدل فى العقائد الدينية .
٣ — الاسترسال للتخالف والتفرق فى الدين .
٤ — الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .
٥ — تشديد الفقهاء المتأخرين فى الدين خلافاً للسلف .
٦ — إدخال العلماء المدلسين والمقابرية على العامة كثيراً من الأوهام .
٧ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعاً مضرة .

٨ — إيهام الدجالين والمداجين أن فى الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب .

٩ — اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين .

١٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع فى هذا الباب

١١ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعبا .

١٢ — إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ — التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ — العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بميزتها .

١٥ — تطرق الشرك الخفى أو الصريح إلى عقائد العامة .

(ب) الأسباب السياسية العامة

من الأصول

١ — السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ — حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط .

٣ — اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ — قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها الفقراء

٥ — إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار .

ومن الفروع فى هذا النوع

٦ — فقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٧ — مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٨ — فقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .
٩ — ميل الأمراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين .

(ح) الأسباب الأخلاقية

من الأصول

١ — الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه .
٢ — انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية .
٣ — التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة .
٤ — فقد التناصح وترك البغض فى الله .
٥ — غلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً .
٦ — فقد التربية الدينية والأخلاقية .

وأضاف السيد الكواكبى إلى تلك الأسباب أسباباً أخرى منبعثة عن الخور فى سياسة الدولة العثمانية وإدارتها ومظهر ذلك فيما يعتقد الكواكبى فى توحيد قوانين الإدارة والعضوية مع اختلاف طبائع أطراف المملكة وتباين أهلها فى الجنس والعادات ، زد على ذلك تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة .

ويقول الكواكبى إن من أسباب الخور فى الدولة تمسكها بأصول الإدارة المركزية مع ارتباك هذه الإدارة بما يصيبها من عدم الالتفات إلى توحيد الأخلاق والمسالك فى الوزراء والولاة والقواد ، واضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين فى المملكة .

زد على ذلك أن الدولة درجت على قاعدة اختلاف الجنسين بين ولاة الأقاليم وأهلها لكى تأمن غائلة الاتفاق عليها ، كذلك درجت الدولة على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنم والغرم فى المناصب والارتزاق من بيت المال ، وقد أصاب العرب غرم كبير مع أنهم يكونون ثلثى رعيتها .

ومما زاد فى ضعف الدولة تساهلها فى انتخاب العمال والمأمورين والإكثار منهم بغير لزوم ، وإنما يقصد فى انتخابهم إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين . ولقد كانت تتلافى ضعفها بالضغط على الأفكار المتنبهة لكيلا تسمو وتنمو وتتطلع على مجارى الإدارة فى محاسنها ومعايبها ، مع أن مثل هذا الضغط لا يؤثر على النمو الطبيعى ، وإنما هو عبث محض لا يتأتى منه إلا الإغراء والتحفز والحقد على الإدارة .

أما فى إدارة بيت المال فكانت مطلقة اليد تصرف دون مراقبة وتنشر جزافاً بغير موازنة ، وتسرف بلا عتاب وتتلف بغير حساب حتى صارت المملكة مدينة للأجانب بديون ثقيلة انهكت كاهل المملكة .

وفى إدارة المصالح المهمة السياسية ما كانت تستثير ولا تقبل المنافسة ولو كانت هذه الإدارة مشهودة المضرة فى كل حركة وسكون وكان دأبها فى تغطية هذه المعايب المداراة واسكات المطلعين على المعايب حذراً من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور ، والعامة من إذا علموا قالوا : وإذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى . وأما إدارة السياسة الخارجية فكانت تديرها بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات وبذل النقود للجيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية .

ولقد أوضح الكواكبى اتساع الهوة بين العرب والترك وضرب أمثلة من العبارات والأسماء التى كان الأتراك ينبزون العرب بها .

وبعد ذكر هذه الأسباب والعلل فى فتور العالم الإسلامى التى أوردها على لسان جمعية المتخيلة طلع بهذا الرأى فقال :

وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير النهضة الدينية رأت من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاريهم وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً وذلك لأجل رفع

التعصب السياسي أو الجنسي ، ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب فنقول :

١ — الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي فيها الكعبة المعظمة ، وهي أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً ، وهي أسلم الأقاليم من الاختلاط جنسية وأديانا ، ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعي وعرب الجزيرة هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم .

وعرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لأنه مناسب لطبائعهم الأهلية أكثر من مناسبته لغيرهم وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين ، لأنهم أعرقهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة فى الإيمان .

وعرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأييده والفخار به خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم فى الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقيا ولا يزال الدين عندهم حنيفاً سلفياً بعيداً عن التشويش والتشديد وهم أقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من خصائص البدوية ، وأمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم ، وهم أقدم الأمم مدنية مهذبة بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وأدبياتهم وأقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة فى سبيل مقاصدهم وأنشطهم على التغرب والسياحات وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله ، وهم أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم فهم يخالطون ولا يختلطون .

وعرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال

وإباء الضيم ومن ذلك عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين والعرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين فى المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت .

وهى اللغة العمومية بين المسلمين كافة البالغ عددهم ٣٠٠ مليون وهى اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين . والعرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية وأعرفها فى أصول الشورى فى الشئون العمومية ، وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية وأحرصها على احترام العهود عزة واحترام الذمة إنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة ، والعرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين ، وقدوة للمسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء ، فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً .

فهذه الأسباب التى جعلت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية .

وهكذا يستنهض الكواكبى بنى قومه يذكرهم بأمجادهم ومآثرهم ويشرح خصائصهم ، وصفاتهم الكامنة فيهم ، ويبين لهم أن هذه الصفات إذا عادت للوجود كافية أن تعيد للأمة قوتها وترجع إليها سلطانها .

وأن الأمة العربية فيها من عناصر القوة ما يؤهلها أن تتزعم العالم الإسلامى مرة أخرى .